

سيميوطيقا الثقافة (يوري لوتمان نموذجاً)

أ.د. جميل حمداوي
جامعة الرباط - المغرب

المقدمة:

تناولت السيميوطيقا (La Sémiotique) مجموعة من المواضيع بالتفكيك والتركيب، ودراسة الدوال والعلامات والسيميوزيس، بغية بناء المعنى العميق، وتحصيل الدلالة الثابوية وراء السطح، ومن أهم هذه المواضيع: الفعل، والذات، والوجدان، والتوتر، والثقافة، والفضاء، والزمان، والشخصية، والصورة، والإشهار، والأسلوب، والنص، والفن، والتأويل، ووسائل الإعلام...

وما يهمننا في هذه الدراسة هو التوقف عند سيميوطيقا الثقافة التي تعنى بدراسة الأنظمة الثقافية الخاصة والكونية، واستجلاء مظاهر المثافة والتهجين والتعددية، ورصد أنظمة التواصل عند الشعوب البدائية والمتحضرة.

إذاً، ما سيميوطيقا الثقافة أو الثقافات؟ وما أهم المراحل التي عرفتھا الدراسات الثقافية؟ وما أسس سيميوطيقا الثقافة مع يوري لوتمان (Yori Lotman) نظرية وتطبيقاً ومنهجية؟ هذا ما سوف نتعرفه عبر العناصر التالية:

➤ مفهوم سيميوطيقا الثقافة أو الثقافات:

نعني بسيميوطيقا الثقافة أو الثقافات (Sémiotique de la culture) دراسة الأنظمة الثقافية باعتبارها دوالاً وعلامات وأيقونات وإشارات رمزية لغوية وبصرية، بغية استكناه المعنى الثقافي الحقيقي داخل المجتمع، ورصد الدلالات الرمزية

والأنثروبولوجية والفلسفية والأخلاقية. ولا تقتصر هذه السيميوطيقا على ثقافة واحدة أو خاصة، بل تتعدى ذلك إلى ثقافات كونية تتسم بطابع عام، قوامها: الانفتاح، والتعايش، والتواصل، والتكامل، والتعددية، والتهجين، والاختلاف، والتنوع، والتسامح، والتعاون، والمثاقفة، وتداخل النصوص (التناص)، وتعدد اللغات والثقافات...

ومن جهة أخرى، تهتم سيميوطيقا الثقافة بخصوصيات كل ثقافة مستقلة داخل نظام سيميائي كوني. وتعنى أيضا بالعوالم والأقطاب الثقافية الصغرى والكبرى ضمن ثنائية المركز والهامش، والاهتمام بالحوار في علاقته بالصراع الثقافي. ومن ثم، تقدم لنا سيميوطيقا الثقافة والثقافات المبادئ النظرية والأدوات المنهجية لمقاربة الظواهر والأنظمة الثقافية، بغية البحث عن مبدأ الكفاءة، والبعد التواصلية، والخاصية الإبداعية. علاوة على دراسة مبدأ التبادل في الأوساط الثقافية، مثل: تبادل المعارف الأكاديمية والمهارات الاحترافية والممارسات المهنية...

وهناك قضايا مهمة شتى يمكن أن تشتغل عليها سيميوطيقا الثقافة، مثل: الإبداع، والآداب، واللغة، والفن، والفلكلور، والترجمة، والأدب المقارن، والتواصل، وعلاقة الأنا بالآخر، وأدب الصورة، وأدب الرحلة...

➤ دراسات حول الثقافة:

يمكن الحديث عن أنواع ثلاثة من المقاربات التي تناولت موضوع الثقافة بالدرس والتحليل والاستكشاف، ويمكن حصرها في ما يلي:

◎ المقاربة الفلسفية:

لقد كانت الدراسات الثقافية، في بداية أمرها، خاضعة للتصورات الفلسفية؛ والدليل على ذلك التقابلات الأنثروبولوجية بين العناصر، مثل: التقابل بين الطبيعة والثقافة، حيث تتميز الطبيعة بمجموعة من السمات، مثل: الحرية، والفوضى، والبدائية، والتوحش، والعنف، والعدوان... في حين، تتسم الثقافة بمجموعة من الخصائص المميزة، مثل: القانون، والعقل، والمنطق، والمجتمع، والحضارة، والمدنية، والتعاقد، والانضباط، والالتزام...

هذا، ويعد كلود ليفي شتروس (Claude Lévi- Strauss) من الأنثروبولوجيين الأوائل الذين درسوا علاقة الثقافة بالطبيعة، ضمن أنظمة الأبوة وإنتاج الأساطير¹. وكان هدفه هو البحث عن الانسجام الدلالي لأنظمة الأبوة، مستلهما في ذلك كثيرا من الأعمال الأنثروبولوجية الأنكلوسكسونية وأبحاث المدرسة السوسولوجية الفرنسية، سيما دراسات مارسيل موس (Marcel Mauss) ومارسيل كراني (Marcel Granet). ومن ثم، فقد بين كلود ليفي شتروس كيف انتقل الإنسان من الطبيعي نحو المجتمعي والثقافي. كما درس البنيات المعقدة والمركبة لظاهرة الأبوة. كما خصص أربعة أجزاء، من كتابه (الميثولوجيات)، لدراسة الحكايات الأسطورية في ضوء المنهج البنوي، على غرار الشكلائي الروسي فلاديمير بروب (Vladimir Propp). وعلى العموم، لقد انصبت أعمال كلود ليفي شتروس على رصد الثوابت والمتغيرات والتحويلات في بنية الأساطير. وبالتالي، تدرج هذه الدراسة التحليلية ضمن المنهج المقارن، مادام هذا البحث يقارن الأساطير التي تتضمنها العينة التي يشتغل عليها، من خلال البحث عن المشترك والمختلف. ويرجع تأسيس الدراسة المقارنة، في مجال الأسطورة، إلى ماكس مولر (MAX MÜLLER) الذي كان رائدا في هذا الميدان بكتابه (مدخل إلى الميثولوجيا المقارنة) سنة 1859م، وقد طورها جورج دوميزيل (Georges Dumézil)، وبالضبط في أعماله المنجزة حول الأساطير القديمة (1942-1947)، وحول إيديولوجيا الشعوب الهندية -الأوروبية القديمة (1958م).

◎ المقاربة اللسانية:

انتقلت الدراسات الثقافية من طابعها الفلسفي المبني على التقابلات الأنثروبولوجية إلى الطابع العلمي الموضوعي، من خلال تحويل المعطيات الثقافية إلى مواضيع للدراسة العلمية. ويعني هذا الانتقال الثقافي، مما هو فلسفي وفكري إلى ما هو علمي موضوعي، أن الدراسات الثقافية قد حققت تقدما كبيرا على مستوى المنهج والتصورات النظرية والتطبيقية. وقد استفادت، بشكل خاص، من المناهج الوصفية ذات الطابع العلمي الدقيق. ومن ثم، فلقد أصبحت النصوص الأسطورية،

والملمحية، والفلكلورية، وغيرها من النصوص الثقافية، ميدانا للتحليل اللساني والبنوي والشعري والمورفولوجي، كما يؤكد ذلك الباحث الفرنسي فرانسوا راستي (François Rastier)²، وبالضبط مع مجموعة من الباحثين، مثل: فرديناند دوسوسير (F.DE.Saussure)، وشتاينال (Steinthal)، وبريال (Bréal)، ودوميزيل (Dumézil)، ورودولف إنجلر (Rudolf Engler)...

وإذا كانت اللسانيات هي بمثابة سيميولوجيا عامة للغات والنصوص والخطابات، فإن سيميوطيقا الثقافة هي جزء من تلك اللسانيات أو السيميولوجيا العامة.

◎ المقاربة السيميوطيقية:

لم تتبلور سيميوطيقا الثقافة أو الثقافات بشكل جلي إلا مع مدرسة تارتو (Tartu) - موسكو التي كان يمثلها كل من: إيفانوف (Ivanov)، وأوسبنسكي (Ouspenski)، ولوكموتسيف (Iekomcev)، ولوتمان (Lotman)، وغيرهم...

ويعد يوري لوتمان (Youri Lotman) من أهم الشكلايين الروس الذين اهتموا بسيميوطيقا الثقافة، علاوة على عنايته ببنية النص الفني، خاصة أنه كان عضوا مهما في مدرسة تارتو (Tartu) بموسكو، ومن أهم كتبه: (سيمياء الكون)³، و(انفجار الثقافة)⁴، و(بنية النص الفني)⁵.

ومن هنا، فقد اقترن اسمه بسيمياء الكون (La Sémiotique) (1999م). ويعني هذا المفهوم الفضاء السيميوطيقي المعقد والمركب الذي تشغله ثقافة ما. وبالتالي، يمكن التعامل مع مجموع الثقافة مثل نص أو خطاب ما. كما يتفرع هذا النص المركب إلى نصوص فرعية متناصلة ومنقسمة بطريقة تراتبية وطبقية. بمعنى أن كل نص ثقافي ينقسم إلى نصوص، ويتفرع كل نص بدوره إلى نصوص أخرى، وهكذا دواليك... ومن ثم، تأبى الديناميكية الثقافية الانعزالية، والانغلاق، والسلبية في تلقي التأثيرات الخارجية، دون المساهمة في التفاعل والعطاء والتبادل الثقافي. ومن

ثم، فالسيميوطيقا الثقافية هي سيموطيقا مقارنة واختلافية وتعددية. ويعني هذا أن لوتمان قد تأثر كثيرا بفلسفات ما بعد الحداثة، سيما فلسفة الاختلاف لدى جاك ديريدا (Jacques Derrida). ويعني هذا أن الثقافة لا يمكن فهمها إلا ضمن نطاق فضاء الثقافة الكونية أو العالمية، وضمن مسار الثقافات القديمة والمعاصرة على حد سواء. وثمة دراسات سيميوطيقية معاصرة أخرى تندرج ضمن سيميوطيقا الثقافة كتلك التي أشرف عليها كل من: فرانسوا راستي (F.Rastier) وسيمون بوكيه (Simon Bouquet) تحت عنوان (مدخل إلى علوم الثقافة)، وقد قدمت منظورا جديدا حول البرامج المعاصرة المتعددة الاختصاصات، خاصة تلك التي تهتم بالعلوم المعرفية والعلوم الثقافية، ضمن أنتروبولوجيا سيميوطيقية تعنى بالمواضيع الثقافية من وجهة علامائية.

وعليه، تستفيد سيمياء الكون، عند يوري لوتمان، من علوم الثقافة والأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا، وعلم الحفريات، واللسانيات التاريخية والمقارنة، وعلم الأخلاق الإنسانية... ومن ناحية أخرى، تستفيد هذه السيميوطيقا من لسانيات فرديناند دي سوسير (F.De Saussure). ومن ثم، ترتبط بخاصتين أساسيتين هما: الاستقلالية والتداخل، وهما المولدتان لمختلف الأنظمة الثقافية داخل النظام الكوني. ويعني هذا أن نقل التراث الثقافي السيميوطيقي يتميز بالتداخل أو بالاستقلالية، ودراسة مختلف التطبيقات العملية والتقنية في نقل الموروث الثقافي. ومن ثم، لا يعيش الإنسان في محيط مادي فقط، بل يعيش في فضاء ثقافي رمزي، يتكون من اللغة، والأدب، والفن، والدين، والأسطورة، والمخيال... وكلما تطورت الوظيفة الثقافية الرمزية تراجعت الوظيفة المادية. ومن ثم، يتوسط العالم السيميوطيقي عالين متقابلين: عالما فيزيائيا (الواقع)، وعالما خياليا رمزيا (الإبداع).

هذا، ولا تنتج دلالة النص الثقافية إلا حين النقاء الإنتاج مع التلقي والتأويل. وبالتالي، تعد النصوص المؤسسة الثقافية الأولى. وبالتالي، تساهم اللسانيات

والمقاربات التأويلية الدلالية في تفكيك هذه النصوص بنية ودلالة ومقصدية. ومن ثم، يرتبط كل نص باللغة والمجتمع ومؤسسة الجنس الأدبي.

• سيمياء الكون بين النظرية والتطبيق:

تتبنى سيمياء الكون أو سيمياء الثقافة أو الثقافات، عند يوري لوتمان، على مجموعة من المفاهيم النظرية و التصورات المنهجية والمصطلحات الإجرائية التي يمكن حصرها في ما يلي:

◎ مفهوم سيمياء الكون:

يتكون مفهوم سيمياء الكون (La Sémiosphère) من مصطلح السيميوطيقا الذي يعني علم العلامات والإشارات، ومصطلح (Sphère) الذي يعني الكون أو المجال الواسع. ومن ثم، يمكن ترجمة المفهوم بالسيميوطيقا المجالية أو الفضائية أو الكونية، ويترجمه الباحث المغربي عبد المجيد النوسي بسيمياء الكون⁶.

وتستوجب هذه السيميوطيقا وجود فضاء كوني عام، يتضمن عدة لغات وثقافات مختلفة متفاعلة فيما بينها إيجابا وسلبا. ومن ثم، فالنبتان الزمانية والمكانية هما أساس حياتنا الثقافية ضمن سيمياء الكون. بمعنى أن سيمياء الكون تتبنى على وجود لغات ثقافية متعددة ومختلفة، تنقسم بدورها إلى محورين: محور أفقي يمثل الزمنية (الماضي، والحاضر، والمستقبل)، ومحور عمودي يمثل الفضاء (الداخل، والخارج، والحدود). وتشكل هذه اللغات أساس السيميوطيقا الكونية لدى لوتمان. ومن ثم، تتميز السيميوطيقا الكونية بتداخل اللغات وتواصلها وتفاعلها، على الرغم من استقلالية كل لغة على حدة بمكوناتها اللسانية والثقافية الخاصة. وأكثر من هذا، فلا وجود للوحدة الكونية إلا بالاختلاف البناء، وتمثل حوار الحضارات، والإيمان بتعدد اللغات والثقافات.

فإذا أخذنا صالة المتحف - مثلا-، فإنها تشتمل على مجموعة من اللوحات الفنية التي تعبر عن عصور وسياقات واتجاهات فنية متنوعة، وتتكلم بلغات شتى، كما تخضع زيارة المتحف لأنساق سلوكية مختلفة. وعلى الرغم من هذا الاختلاف،

فهناك وحدة ما تجمع بين هذه العناصر والمظاهر تتمثل في وحدة المكان، وهي صالة المتحف.

ومن هنا، يتأسس الانسجام، في سيميوطيقا الكون، على وجود قانون الثنائيات البنوية المتعارضة (يمين ويسار، وأسفل وأعلى، ...)، وقانون اللاتماثل. ويعني هذا أن سيميوطيقا الكون قائمة على مبدأي الاختلاف واللاتماثل في مظهرهما العام. كما تتضمن هذه السيميوطيقا مجموعة من العناصر البنوية المتعارضة الدالة.

وعليه، تشبه السيميوطيقا الكونية ما يسمى بالكون الحيوي الذي تحدث عنه الفيزيائي الروسي فيرنادسكي (Vernadsky). بمعنى أن الكون السيميائي يضم مجموعة من اللغات والأنساق التواصلية المختلفة القائمة على التفاعل والتحاور والتناص. ومن ثم، فالكون السيميائي هو فضاء لذلك الالتقاء والتفاعل والتواصل الدائم. ويرى لوتمان أن السيميوطيقا مبنية على التواصل والسيميوزيس والتجارب السيميائية للذوات. ومن ثم، فالكون السيميائي هو الفضاء الوحيد للتواصل والتفاعل بين اللغات، وفي مظهره يتحقق الإخبار والإعلام والتواصل. ومن ثم، يمكن الحديث عن ثقافة بشرية مشتركة وكونية. علاوة على ذلك، تقوم السيميوطيقا الكونية على الثنائيات البنوية واللاتماثل اللذين يحققان التماسك السيميوطيقي. ومن ثم، تنقسم اللغات والثقافات - بنويًا - إلى ثنائيات غير متماثلة. وهناك أيضا تعدد الأنساق الثقافية ضمن نسق سيميوطيقي معين، وتعدد اللغات التي تتطور وتتفرع مركزا وهامشا. وبالتالي، لا يمكن للغة أن تشغل إلا في فضاء ثقافي سيميائي معين. وفي هذا الصدد، يرى لوتمان بأن "كل لغة تجد نفسها غارقة داخل فضاء سيميوطيقي خاص، ولا يمكن أن تشغل إلا بالتفاعل مع هذا الفضاء.. هذا هو الفضاء الذي نصلح عليه " بسيمياء الكون".⁷

إذا، يتحدث لوتمان عن الفضاء الثقافي الكوني الذي يرفض الانعزال والانغلاق والأحادية. فالكون هو الفضاء الحيوي الملائم لتطور الثقافة واستمرار حياة الذوات والأغيار. وقد كتب فيرنادسكي: "كل المجموعات الحية تعد مرتبطة، حميميا،

البعض بالآخر. لا يمكن للواحدة أن توجد بدون الأخريات. هذه العلاقة الثابتة بين مختلف المجموعات وطبقات الحياة، تعد أحد المظاهر التي لا تظمس للآلية الفاعلة داخل القشرة الأرضية، والتي تمظهرت على طول الزمن الجيولوجي.⁸

تثبت هذه القولة وجود ترابط حميم بين الكائنات الحية، وأن هذه الكائنات لا يمكن أن تعيش في معزل عن الأخرى. ويعني هذا أن التفاعل هو أساس الكائنات العضوية، وأن الانعزال صفة مشينة في هذا الكون الحيوي. وقد يتجاوز هذا التفاعل الحيوي والاجتماعي والطبقي الإنسان والكائن الحي إلى ما هو جيولوجي على صعيد القشرة الأرضية. بمعنى أن الإنسان بنية جزئية توجد داخل الطبيعة أو الكون الطبيعي، وتنتمي إلى هذا المجموع، وتتحرك فيه ضمن علاقة عضوية حيوية مع مختلف العناصر والبنىات التي توجد في النسق الكلي نفسه. أما عن العلاقات التي توجد بين الإنسان وباقي المجال الحيوي، فهي علاقات تفاعلية وتواصلية متنوعة، قد تكون موجبة أو سالبة. وتتحدد هذه العلاقات في الزمان والمكان معا. ومن هنا، فالإنسان لا يمكن أن يعيش إلا في فضاء كوني حيوي مع الكائنات الأخرى، سواء أكانت بشرية أم غير بشرية. وبالتالي، لا يمكن للإنسان الطبيعي أن ينعزل عن هذا الفضاء الثقافي الكوني العام الذي ينصهر فيه الجميع تفاعلا وتعايشا وإبداعا وتوصلا.

© مبدأ اللاتجانس :

يوحي اللاتجانس بالتعددية والاختلاف وعدم التماثل والتوازي. بمعنى أن هذا الكون يتضمن لغات وأنساقا ثقافية مختلفة، تترايط فيما بينها، وتتعدد بنية ودلالة ووظيفة. وبالتالي، يشتمل هذا الكون على تجارب سيميائية مختلفة وبنيات لغوية متعددة . وعلى الرغم من هذا التعدد، فهناك ترابط وأواصر جامعة بين هذه اللغات، وخير دليل على هذا الترابط ما تقوم به الترجمة من نقل للمعاني والتجارب السيميائية من لغة إلى أخرى. وفي الآن نفسه، تصبح هذه الترجمة عاجزة عن نقل ذلك بأمانة ؛ بسبب اختلاف النسق السيميائي واللساني والثقافي من لغة إلى أخرى. وفي هذا الصدد، يقول يوري لوتمان: "سيمياء الكون موسومة باللاتجانس. تعد اللغات التي تملأ الفضاء السيميويطي متنوعة ومترابطة ببعضها البعض على طول طيف يذهب من إمكانية كاملة ومتبادلة للترجمة إلى استحالة كاملة ومتبادلة أيضا للترجمة. يتحدد اللاتجانس، في ذات الحين، بتعدد العناصر التي تكون سيمياء الكون وباختلاف الوظائف التي تنجزها هذه العناصر. هكذا، إذا قمنا بتجربة ذهنية نتخيل من خلالها نموذجا لفضاء سيميويطي رأيت فيه كل اللغات النور في اللحظة ذاتها ونفسها، وتحت تأثير الاندفاعات نفسها، لا نحصل دائما على بنية ذات سنن موحد، ولكن على مجموعة من الأنساق المترابطة والمختلفة".⁹

ومن ثم، تتعرض اللغات، مثل الموضوعات، للتغير والتطور والتجديد. فإذا كان التطور البيولوجي والتقني يتعرض للمحو والانقراض، وسيطرة الجديد، فإن الأشكال الثقافية تموت وتتجدد حسب العصور. بمعنى أن موضحة ما قد تنقرض في زمن ما، لكن يمكن أن تظهر من جديد في فترة أخرى، لتتخذ صفة الحداثة والتميز. وفي هذا، يقول لوتمان: "يتضمن التطور البيولوجي انقراض بعض الأنواع والانتقاء الطبيعي: لا يرى الباحث سوى الكائنات الحية التي تعاصره. ظاهرة مماثلة تقع في تاريخ التكنولوجيا: حينما تصبح أداة ما متجاوزة وباطلة بفعل التقدم التقني، فإنها تدخل مرحلة "التقاعد" داخل متحف مثل قطعة أثرية. لقد توقفت، إذا أردنا القول، عن

الحياة. في تاريخ الفن، على العكس من ذلك، الآثار الفنية التي تصلنا من حقب ثقافية غارقة في القدم تستمر في لعب دور داخل تطورنا الثقافي الخاص مثل عوامل حية. أثر فني ما يمكن أن يموت ثم يعود إلى الحياة؛ بعدما أن تم الحكم عليه بأنه متجاوز، يمكن أن يعود ليصبح متسما بالراهنية، بل تنبؤيا حينما يتحدث عن المستقبل. إن ما هو وظيفي ليس الطبقة الزمنية الأكثر حداثة، ولكن كلية التاريخ التي تحتويها النصوص الثقافية.¹⁰

وتأسيسا على ما سبق، تتميز سيمياء الكون بالاختلاف العام على مستوى اللغات والنصوص والخطابات والأفضية والثقافات. بيد أن هذا الاختلاف قد يساهم في تحقيق البعد التواصلي والديناميكية الثقافية التي لا تقبل الانعزال والانغلاق والتطرف والانطواء على الذات.

© مبدأ الثنائيات الضدية:

تتأسس سيميوطيقا الفضاء الكوني، عند يوري لوتمان، على مجموعة من الثنائيات البنوية المتعارضة والمتقابلة، مثل: يمين/يسار، وأمام/خلف، وأعلى/أسفل... وتحمل هذه التقابلات أبعادا ثقافية وعقدية وقيمية واجتماعية ...

وعلى العموم، هناك تقابلات ثقافية بين اليمين واليسار، بين الأموات والأحياء، بين المذكر والمؤنث، بين الأعلى والأسفل... وفي هذا المنحى، يقول لوتمان: "يعد لاتناظر الجسم البشري القاعدة الأنثروبولوجية لعملية منحه بعدا سيميائيا: سيميوطيقا اليمين وسيميوطيقا اليسار يمكن أن توجد كونيا في الثقافات البشرية كما هو الأمر بالنسبة لتقابل الأعلى والأسفل. اللاتناظرات العميقة للمذكر والمؤنث، للأموات والأحياء، هي أيضا منتشرة.التقابل حي/ميت يتضمن تقابل شيء ما يتحرك، شيء ساخن، يتنفس، بشيء غير متحرك، أو بارد لا يتنفس."¹¹

ومن هنا، تتأسس سيمياء الفضاء الكوني على وضع تيبولوجية لمختلف التعارضات البنوية على مستوى الفضاء، وهي المسؤولة عن توليد الدلالة من جهة، وتحقيق السيميوزيس من جهة أخرى.

© مفهوم النص:

يتخذ النص، عند يوري لوتمان، بعدا سيميائيا وثقافيا قائما على الحوارية وتداخل النصوص داخل كون سيميائي معين، أساسه التفاعل والانفتاح والتجاور والحوار. وفي هذا الصدد، يقول لوتمان: "يتم انتقال النصوص في الواقع في كل الاتجاهات، تيارات كبيرة وصغيرة تتقاطع وتترك آثارها الخاصة. بشكل متزامن، تجد النصوص نفسها موصولة ليس بواسطة واحد، ولكن بواسطة عدد كبير من مراكز سيمياء الكون، وسيمياء الكون الحقيقية تعد متحركة داخل حدودها الخاصة. تحدث هذه السيرورات نفسها في نهاية الأمر على مستويات متعددة: المراحل التي يغزو فيها الشعر النثر، تتناوب والمراحل التي يغزو فيها النثر الشعر؛ إنها مراحل توتر متبادل بين الدراما والرواية، بين الثقافة الشفوية والثقافة المكتوبة، بين الثقافة العالمية والثقافة الشفوية. مركز واحد، والمركز نفسه، لسيمياء الكون، يمكن في ذات الوقت أن يكون فاعلا وملتقيا، فضاء واحد، الفضاء نفسه، لسيمياء الكون، يمكن أن يكون في الوقت نفسه المركز والهامش؛ تؤدي عناصر الجذب إلى الرفض، وتولد عناصر الدخيل أصالة سيمياء الكون. لا تتعامل سيمياء الكون (الفضاء الثقافي) وفق خطاطات مرسومة سلفا، ومحسوبة سلفا، إنها تشع مثل شمس، مراكز للنشاط تغلي على مستويات مختلفة، في العمق وعلى السطح، ناشرة الأشعة على مناطق هادئة نسبيا بطاقتها القوية. غير أن هذه الطاقة الخاصة بسيمياء الكون هي طاقة الإخبار، إنها طاقة الفكر."¹²

وعلى العموم، الثقافة عبارة عن نص متعدد ومركب ومعقد، تتداخل فيه النصوص والخطابات تناسبا وحوارية وتفاعلا وامتصاصا.

© الفضاء الثقافي الكوني:

ترتبط سيميوطيقا الثقافة، عند يوري لوتمان، بالفضاء الكوني الذي تتدرج فيه، لكل ثقافة كونها السيميائي الخاص والعام، وقد يكون هذا الفضاء المتخيل واقعيًا أو

مجردا أو محتملا أو مفترضا أو ممكنا. ومن ثم، فسيميوطيقا الفضاء " لها أهمية استثنائية، وربما حاسمة في تمثيل العالم الخاص بثقافة معينة. وترتبط هذه اللوحة للعالم بخصوصيات الفضاء الواقعي. ليكون لثقافة ما تأثير في الحياة، يجب أن تتصور تمثلا عميقا للعالم، نموذجا مكانيا للكون. تعيد النمذجة المكانية بناء الشكل المكاني للعالم الواقعي. غير أن الصور المكانية يمكن أن تستعمل بصور مختلفة.¹³

ومن ثم، يمكن الحديث عن فضاءات نصية وثقافية متعددة تنتمي إلى سيمياء الكون، مثل: الفضاء المجرد، والفضاء الواقعي، والفضاء الأسطوري، والفضاء الفانطازي، والفضاء الجغرافي ...

◎ الفضاء الجغرافي:

تناول لوتمان أشكال الفضاء الثقافي، فقسمه إلى فضاء جغرافي، وفضاء ثقافي، وفضاء كوني.... ومن ثم، يبني الفضاء الجغرافي، في العصر الوسيط، على التقابل بين الأرض والسماء، أو بين حياة الأرض وحياة العالم الآخر، أو بين الحياة الأرضية والحياة السماوية، أو بين البقاع الطاهرة والبقاع الآثمة، بل هناك تقابل بين الفضاء (الأرض) واللافضاء (الآخرة). ويعني هذا أن الفضاء الجغرافي يتخذ، في العصور الوسطى، بعدا دينيا وأخلاقيا وروحانيا، ويتسم الاتجاه القيمي لهذا الفضاء بكونه عموديا، يتحرك من الأسفل نحو الأعلى. ويعني هذا التحرك أن الروحاني يسمو على ما هو دنيوي وأرضي. وبالتالي، يعتبر رجال الدين أن ما هو سماوي هو الأسمى والأعلى، على الرغم من كونه يجري خارج الفضاء، ويتخذ طابعا مثاليا خالصا؛ لأن "التحرك داخل الفضاء الجغرافي يدل على التحرك على طول السلم العمودي للقيم الدينية والأخلاقية. تتكون قمة السلم من السماء، وتتكون قاعدته من الجحيم."¹⁴

ومن هنا، ترتبط الأخلاق بالأمكنة، وتتخذ الأمكنة دلالات أخلاقية. "لذا، فقد

"أصبحت الجغرافيا شكلا من أشكال الأخلاق".¹⁵

وفي العصور الوسطى، كثرت الكتب التي تعنى بتصوير الفضاء العلوي المقابل للفضاء السفلي. ومن هنا، فقد اتخذ الفضاء بعدا جغرافيا وأخلاقيا، فكثرت الأسفار من الأرض إلى الجنة والجحيم، مثل: (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري، و(الكوميديا الإلهية) لدانتي، وفي هذا الصدد، يقول لوتمان: "باتفاق مع هذه الأفكار، كان رجل العصور الوسطى يعتبر السفر داخل الفضاء الجغرافي مثل انتقال المعنى الديني والأخلاقي للكلمة: البلدان كانت تصنف مثل بلدان بدع وثنية أو بلدان قداسة. المثل الاجتماعية- كما هو الأمر بالنسبة لكل الأنساق الاجتماعية التي يمكن أن يتخيلها العقل الوسيطي- كانت تعتبر كما أنها تحقق داخل فضاء جغرافي محدد. كانت الجغرافيا والأدب الجغرافي مثالين في الجوهر، وكان السفر يتخذ مظهر حج."¹⁶

وأكثر من هذا فقد كان السفر ذا بعد جغرافي وأخلاقي وروحي، وقد ارتبطت الهجرة، في القرآن الكريم، بالعبادة والطهارة والقداسة والاستشهاد وحب الله، مصداقا لقوله تعالى: "ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت، فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفورا رحيفا"¹⁷.

وقد كانت هجرة الرسول من مكة إلى المدينة انتقالا من فضاء الكفر والوثنية والضلال إلى فضاء الإيمان والتوبة والتقوى، وتطبق الدلالات نفسها على هجرة الصحابة إلى الحبشة في بداية الدعوة الإسلامية.

ونجد هذه الهجرة أيضا عند الفلاسفة ((حي بن يقظان) لابن طفيل)، وكذلك عند المتصوفة الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر (النفري مثلا)...

ومن هنا، "فالجغرافيا، في العصور الوسطى، لم تكن تعالج مثل تخصص علمي، ولكن بصفتها فرعا للأوطوبيا الدينية. هذه الطريقة في الرؤية يوافقها موقف خاص تجاه السفر والمسافر: السفر طويل يجعل المسافر أكثر قداسة، وبشكل متزامن، الطريق المفضي إلى القداسة يتضمن ضرورة فكرة التخلي عن

حياة الرفاهية والإقبال على السفر. ويعني التحرر من الآثام السفر بعيدا. أي: التحرك داخل الفضاء. هكذا، كان الذهاب إل الدير يمثل انتقالا من مكان الإثم إلى مكان القداسة؛ إنه يتشابه مع رحلة حج ومع الموت، لأن الموت نفسها كانت تعتبر مثل انتقال داخل الفضاء.¹⁸

وتتقابل البلدان جغرافيا وأخلاقيا، مثل: تقابل الهند الروحانية مع روسيا المادية. كما تقترن درجة المناخ بطيبوية الناس، حيث يعبر المناخ في الجحيم عن فضاضة البشر وقسوتهم. في حين، يعبر مناخ الجنة عن طيبوية الناس ودمائة أخلاقهم. علاوة على هذا، يتسم الفضاء الوسيط بالانتقاء الذي يتمثل في اختيار أفضية فاضلة مقابل أفضية دنيئة، وتفضيل الأنا الطاهرة على الآخر المذنب.

هكذا، يتبين لنا بأن الفضاءات الجغرافية، في العصور الوسطى، هي فضاءات دينية وأخلاقية وقيمية وسلوكية. ومن ثم، لا يمكن إدراك الأرض المباركة، على مستوى السفر، إلا بعد مسافة طويلة، كما هو شأن الحج الذي يستوجب قطع مسافة طويلة بالنسبة للحاج النائي.

وعليه، إذا كان الفضاء الجغرافي، في العصر الوسيط، فضاء ثقافيا دينيا وأخلاقيا، فإن الفضاء، في الفترة المعاصرة، هو فضاء واقعي ومادي ينبني على المدينة. وهنا، يتخذ المنزل أو المسكن بعدا سيميويطقيا ثقافيا. وفي هذا النطاق، يقول لوتمان "يوجد لدينا - هنا - مثال واضح لمبدأ مهم داخل الفكر الثقافي البشري: الفضاء الواقعي هو تمثيل أيقوني لسيمياء الكون، هو لغة يمكن أن يتم داخلها التعبير عن دلالات غير مكانية. في حين، تحول سيمياء الكون، بدورها، العالم الواقعي للفضاء الذي نعيش ضمنه إلى تمثيل يناسب صورتها."¹⁹

وعليه، تعد المدينة فضاء كونيا رمزيا، وتأخذ موقعا متميزا داخل ثقافة ما، كأن تكون مركزا من جهة، أو هامشا من جهة أخرى، فالعاصمة هي مركز، ودون ذلك هامش. ومن ثم، لم تعد هناك مقابلة بين السماء والأرض، بل أصبحت بين الطبيعي والاصطناعي. وفي هذا الإطار، يقول لوتمان: "تعد المدينة آلية سيميائية مركبة،

مولدا للثقافة، ولكنها لا تقوم بهذه الوظيفة إلا في الحالة التي تمثل فيها بوتقة لنصوص وسنن مختلفة وغير متجانسة، منتمة لكل أنواع اللغات والمستويات. التعدد الصوتي والسميائي الضروري لكل مدينة، ما يجعل هذه الأخيرة أكثر إنتاجية من وجهة نظر التصادمات السيميوطيقية. وتعد المدينة، باعتبارها فضاء تتواجه فيه سنن ونصوص وطنية، واجتماعية، وأسلوبية، الواحد في علاقته بالآخر، فضاء للتهجين، ولإعادة التسنين، ولترجمات السيميوطيقية، كل ما يجعل منها مولدا قويا لأخبار جديدة. تحدث هذه المواجهات - مثلا - بصفة دياكرونية، كما تقع أيضا بصفة سانكرونية: المجموعات المعمارية، والطقوس والاحتفالات، وتصميم المدينة نفسه، وأسماء أزقتها، وآلاف رفات العصور المكتملة تفعل بصفتها مجموعة من البرامج المسننة التي تجدد باستمرار نصوص الماضي. إن المدينة آلية تعيد خلق ماضيها باستمرار؛ هذا الماضي يمكن، إذاً، أن يتجاوز سانكرونيا، مع الحاضر. بهذا المعنى، فإن المدينة، كما هو الأمر بالنسبة للثقافة، تعد آلية تتحدى الزمن.²⁰

ومن هنا، تكون المدينة فضاء مركزيا اقتصاديا، وفضاء تتعايش داخله لغات ثقافية متعددة. ويعني هذا أن التعدد السيميوطيقي هو القانون الذي يتحكم في هذا النوع من المدن. وبذلك، يخالف النسق السيميوطيقي الموحد. ومن هنا، تعد المدينة فضاء للتناقضات اللغوية والإثنية والثقافية والسيميوطيقية.

وتأسيسا على ما سبق، يتبين لنا بأن الإنسان لا يمكن أن يعيش في معزل عن الكون، حيث لا تأخذ الذوات دلالاتها السيميائية إلا في ارتباط جدلي بالكون، وتمثل ثقافة هذا الكون. أي: لا يمتلك الإنسان الدلالة الحقيقية والسيميوزيس إلا في الفضاء الحيوي الذي يبنى على الثقافة أو الثقافات المتعددة. ومن ثم، تعرف سيمياء الكون بأنه ذلك الفضاء الذي تتداخل فيه الثقافات واللغات والحضارات. إنه فضاء سيميوطيقي للحوار والتعارض والاختلاف والتقابل. إنه فضاء التهجين والبوليفونية والتواصل والتعددية والتناص.

◎ الحبكة الثقافية:

تحيلنا الحبكة، عند لوتمان، على القصصية والأفعال والأحداث السردية التي تنتجها شخصيات مركزية ومحورية أساسية (الرواية البطولية الكلاسيكية)، أو شخصيات هامشية منبوذة، كما يظهر ذلك جليا في الرواية البوليفونية التي تحدث عنه ميخائيل باختين في كتابه (شعرية دويسنفسكي)²¹. ومن هنا، فالحبكة السردية هي تلك الأفعال التي يقوم بها البطل، ويعجز عنها الآخرون، مثل: اقتحام الحدود البنيوية لفضائه الثقافي الخاص به نحو نطاقات ثقافية غريبة. أي: إنها سلسلة من الأفعال التي تؤديها الشخصيات المحورية، بتجاوز حدود نطاقها الثقافي الخاص نحو نطاقات ثقافية أخرى. ويعد كل اختراق فعلا، وتشكل سلسلة هذه الأفعال والاختراقات ما يسمى بالحبكة السردية الثقافية داخل النصوص الإبداعية، سيما الروايات منها.

◎ سيمياء الترجمة:

يعد يوري لوتمان من الرواد الأوائل الذين أسسوا سيمياء الترجمة من خلال التوقف عند مبدأ اللاتجانس. ومن المعروف أن الترجمة فعل ثقافي، بواسطته تتفاعل الثقافات وتتواصل وتتواصل. وتعد الترجمة أيضا أس الفعل الثقافي، وأساس سيمياء الكون. وترتكز على مبدأ اللاتجانس على مستوى النسق اللغوي والثقافي والسيميويزيس. إذ لكل لغة بنيتها الثقافية واللسانية الخاصة بها، وما الترجمة إلا أداة إجرائية وثقافية لنقل المعاني من لغة إلى أخرى، أو بغية تقريب التجارب الإنسانية بفضل النقل والتحويل والتسنين.

وعليه، "فبنية سيمياء الكون تعد لاتناظرية. يجد اللاتناظر تعبيراً له في اتجاهات الترجمة الداخلية التي تجعل كثافة سيمياء الكون قابلة للاختراق. تعد الترجمة آلية للوعي الأولي. إن فعل التعبير عن مصطلح داخل لغة مغايرة للغة الأصل يعد سبيلا للوصول لفهم هذا المصطلح. ومادامت اللغات المختلفة لسيمياء الكون تعد لامتناظرة سيميوطيقيا، بمعنى أنها خالية من التطابق الدلالي المتبادل، فإن كلية سيمياء الكون يمكن أن تعتبر بمثابة مولدا للأخبار"²²

ويعني هذا كله أن الترجمة خير دليل على ثراء سيمياء الكون؛ لأنها تعبر عن عمليات ثقافية، مثل: التواصل، والمثاقفة، والتبليغ، والتفاعل الثقافي، ومبدأ الاختلاف، وتبادل المعلومات والأخبار.

◎ آلية الحوار الثقافي:

يعد الحوار الثقافي - حسب لوتمان- من أهم الآليات الإجرائية التي تعتمد عليها سيمياء الكون، وهي أساس الفكر والترجمة. ويعني هذا أن النسق السيميائي الثقافي يستلزم فعل التواصل بين الملقى والمستمع أو بين الباحث والمستمع. وعلى الرغم من وجود اللاتناظر السيميائي بين البنيات والعناصر، فإن الحوار أساس هذا اللاتناظر على صعيد اللغات والثقافات والطبقات والبنى الاجتماعية. وأكثر من هذا، فالترجمة هي بمثابة حوار متناوب بين اللغات المتشابهة أو المختلفة على مستوى الوضعية التواصلية أو التبادلية أو الثقافية. ويتحقق الحوار في سياق المحبة والصدقة والتعايش والتعاون والتكامل، ولا يتحقق حين وجود الإقصاء والنبذ والكرهية والتطرف. وفي هذا، يقول لوتمان: "لقد سبق أن أشرنا بأن الفعل الأولي للفكر هو الترجمة. يمكن الآن أن نذهب أبعد من ذلك ونقول: إن الآلية الأولية للترجمة هي الحوار. يفترض الحوار اللاتناظر، لاتناظر يجب، بادئ ذي بدء، أن يدرك من خلال الاختلافات الملازمة للبنيات السيميوطيقية (اللغات) التي يستعملها المشاركون في الحوار، وبعد ذلك، من خلال الاتجاهات التناوبية التي يسلكها تدفق الإرساليات. يشير هذا العنصر الأخير إلى أن المشاركين في حوار ما، يتحولون، بالتناوب، من وضعية البث إلى وضعية التلقي، وأن الخبر يتداول وفق قطائع لا متصلة منفصلة بمسافات.

بالمقابل، إذا كان هناك حوار خال من اختلافات سيميوطيقية، فإنه لا مبرر لوجوده، وحين يكون الاختلاف مطلقا إلى حد أن المشاركين يلغون بعضهم البعض، فإن الحوار يصبح مستحيلا. اللاتناظر يجب -إذا- أن يشمل درجة دنيا من الثبات.

ولكن هناك شرط آخر ضروري للحوار: هو الانخراط المتبادل للمشاركين في التواصل وقدرتهما على تجاوز الحواجز السيميوطيقية التي لا يمكن تجنب انبثاقها.²³

وعليه، يستلزم الحوار الثقافي، ضمن سيمياء الكون، وجود لغة مشتركة من جهة أولى، واستحضار أطراف التواصل المحورية: الباث، والمتلقي، والرسالة، من جهة ثانية، ووجود علاقات إيجابية تجمع الطرفين من جهة ثالثة.

◎ ثنائية المركز والهامش:

تتبنى سيمياء الكون، ضمن مبدأ اللاتجانس، على ثنائية المركز والهامش. ومن ثم، يتميز المركز بوجود ثقافة متميزة ومنتشرة كونيا، وذات لغة قوية منظمة ومتطورة بنيويا ولسانيا، متممة بوحدة النسق السيميائي. ويعني هذا أن اللغة الطبيعية هي أساس الثقافة الكونية. وفي المقابل، توجد لغات ولهجات أخرى لا تتسم بالخصائص نفسها على مستوى التقنين والتعديد والقوة والتطور، على الرغم من حملاتها الثقافية والهوياتية. وفي هذا السياق، يقول يوري لوتمان: "يظهر اللاتجانس جليا في العلاقة بين مركز سيمياء الكون وهامشها. في مركز سيمياء الكون، تتكون اللغات الأكثر تطورا والمنظمة بنيويا، بالدرجة الأولى اللغة الطبيعية لهذه الثقافة.

نستطيع أن نقول: إنه إذا كانت أية لغة (بإدماج هذه اللغة الطبيعية) لا تستطيع الاشتغال إلا بشرط أن تكون غارقة داخل سيمياء الكون، إذاً لا توجد سيمياء كون تستطيع، كما أشار إلى ذلك إميل بنفينست، أن توجد بدون لغة طبيعية تلعب دور المركز المنظم.²⁴

لكن قد تضمحل الأنساق اللغوية المركزية، وتحل محلها اللغات الفرعية، مع امتلاك قوة السيطرة داخل النسق السيميائي الكوني، مثل: لهجة فلورنسا التي صارت، خلال عصر النهضة، اللغة الأدبية الفضلى لإيطاليا، بعد أن كانت من قبل لغة مهمشة.

ومن ثم، لا يمكن للغة أو لثقافة معينة أن تمتد ضمن سيمياء الكون إلا باحترام القوانين المفروضة، وتمثل المعايير الأدبية والفنية والقيمية والسلوكية. ويمكن للمركز كذلك أن يتحول إلى هامش، والعكس صحيح أيضا.

وبناء على ما سبق، تتكون السيميوطيقا الكونية من مركز وهامش وحدود. ويعني هذا أن سيمياء الكون تضم مجموعة من اللغات التي تشكل المركز والهامش²⁵. ومن ثم، يتسم المركز بالتنظيم والاتساق والانسجام والوحدة؛ مما يجعله أكثر رقيا وتمدنا وتحضرا؛ مادام يخضع للتقعيد والتفتين (لغة لها قواعد نحوية مثلا). وفي المقابل، هناك لغات فرعية أو هامشية أو مقابلة، تفتقد قوة المركز، وتعيش على الهامش، وتدخل في صراع تقابلي مع المركز المهيمن، كما هو شأن دول المركز ودول المحيط في مجال الاقتصاد.

لكن يمكن للأنظمة السيميوطيقية أن تتطور وتتحول داخل سيمياء الكون، حيث يصبح الهامش مركزا، والعكس صحيح أيضا. ومن باب التمثيل ليس إلا، فقد كانت اليونان مركز الحضارة والثقافة الإنسانية. في حين، كانت روما مركزا هامشيا. بيد أن هذا الهامش الجغرافي سرعان ما تطور ليصبح مركزا كونيا تشع منه الثقافة والحضارة والدين، بل تفرعت، عن لغته اللاتينية، لغات عالمية واكبت حضارات راقية ومتميزة، مثل: الحضارة الألمانية، والحضارة الفرنسية، والحضارة البريطانية...

◎ الفضاء الثلاثي: الداخل والخارج والحدود:

تتبنى النظرية الفضائية، عند يوري لوتمان، على أبعاد ثلاثة هي²⁶: الداخل والخارج والحدود. ومن ثم، تشكل الحدود فواصل وتخوما أساسية بين الداخل (الكوسموس/Cosmos)، والخارج (الكاوس/Chaos). ومن هنا، ترد الحدود على أنها مفاصل أساسية بين الذات والغير، أو بين الأنا والآخر، أو بين نحن والآخرين. وتتحول هذه الفضاءات إلى قيم تتخذ أبعادا مادية في النصوص والخطابات. كما

تفصل الحدود بين الأحياء والأموات، بين المدن والقرى، بين المركز والمحيط، بين المدنيين والقرويين، بين المتحضرين والمتخلفين...

وهناك أنواع من الحدود: حدود مكانية، مثل القبور والأسلاك والأنهار والوديان والجبال... وهناك حدود زمانية، مثل: الليل الذي يفصل الصباح عن المساء. ومن ثم، تتمثل وظيفة الحدود في تعيين العناصر التي تنتمي إلى الداخل أو الخارج، ورصد العناصر التي تتسرب إلى الداخل أو العكس. ومن هنا، يعد قاموس الترجمة عبارة عن حدود ثقافية التي تحدد نطاق ثقافة معينة. ومن ثم، تساهم الحدود في تحقيق التواصل الثقافي. وفي الوقت نفسه، يمكن أن تتحول إلى عائق للتواصل والتبادل الثقافي. فقد كان جدار برلين - مثلاً - بمثابة حد عدائي إيديولوجي يعيق التواصل بين أفراد الأمة الألمانية نفسها. ومن ثم، فالحدود هي أساس التبادل بين الحضارات أو أساس صراعها وانغلاقها، كما يحدث الآن في الكوريتين: الشمالية والجنوبية.

ويرى لوتمان أن الشفرة السيميائية تختلف من ثقافة إلى أخرى، والدليل على ذلك صور الآخر التي تختلف من جماعة إلى أخرى، أو من شعب إلى آخر، حسب المعتقد والوعي والسلوك. ومن هنا، يشتغل يوري لوتمان على ما هو ثقافي وحضاري واجتماعي، بل إنه يؤسس لسيميوطبقاً ثقافية كونية من خلال مؤشرات الفضاء. هذا، وينتج عن الداخل والخارج عدة ثنائيات متعارضة ومتقابلة، تترجم لنا مختلف العلاقات الموجودة بين الأنا والآخر على المستوى الثقافي.

وعلى العموم، تتبنى سيميائية الكون على مفهوم الحدود. بمعنى أن الفضاء الداخلي يتسم بكونه لا متجانساً وغير منسجم وغير موحد. وبالتالي، تفصل الحدود بين الداخل والخارج، بين ضمير المتكلم وضمائر الآخر. ومن ثم، تشير الحدود إلى المجابهة بين الثقافات والذوات والضمائر، مجابهة بين المتكلم المثقف الراقى، والآخر العدوانى والعدمي والهمجي. تحيلنا الحدود على ثنائية الأنا والغير، وتبين لنا طبيعة

العلاقة التي تجمع بين الذات والغير، هل هي علاقة محبة وصداقة وتعاون وتكامل وتعايش أم هي علاقة عدوان وكراهية وتغريب وإقصاء؟

ويعني هذا أن آلية الحدود من أولى آليات التفريد السيميوطيقي. وبالتالي، تستند الثقافات البشرية إلى التقسيم الثنائي: ثقافة الأنا وثقافة الغير، ضمن نسق ثقافي بشري كوني وكلي. وفي هذا الإطار، يقول لوتمان: "تبدأ كل ثقافة بتقسيم العالم إلى الفضاء الداخلي الخاص "بي"، وفضاء "نهم" الخارجي. الطريقة التي يؤول بها هذا التقسيم الثنائي تتوقف على تيبولوجية الثقافة المعينة. غير أن التقسيم الحقيقي هو الذي ينبع من الكليات الثقافية البشرية." ²⁷

بمعنى أن كل منظومة ثقافية بشرية تقدم صوراً مخيالية عن المنظومات الثقافية البشرية الأخرى على مستوى المحذور والمكروه والمباح. وعلى سبيل المثال، يقدم أدب الرحلات صوراً مرآوية حول الآخر، قد تكون هذه الصور موجبة أو سالبة. وعليه، فالحدود هي سمة التوحيد أو التفريق، وسمة التعايش أو الاختلاف. وفي هذا السياق، يقول لوتمان: "غير أن النقط الأكثر حساسية لسيرورات العملية السيميائية هي حدود سيمياء الكون. يتسم مفهوم الحدود بالازدواجية: إنه يفرق ويوحد في الآن ذاته. تعد دائماً حداً لشيء معين، وتنتمي بهذه الطريقة لثقافتين متجاورتين، لاثنتين من سيمياء الكون متلاصقتين. الحد يتسم بالازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي. إنه آلية موجهة لترجمة النصوص من سيميوطيقاً أجنبية إلى "لغتنا"، الفضاء الذي يتحول فيه ما هو خارجي إلى ما هو داخلي؛ إنه غشاء يحول النصوص الأجنبية إلى حد أن هذه الأخيرة تصبح عناصر مكونة للنسق السيميوطيقي الداخلي لسيمياء الكون، مع الاحتفاظ بخصائصها التي تميزها." ²⁸

ويمكن للداخل أن يفتح على الخارج عبر الترجمة والحوار والتناص. كما يتأرجح الفضاء بين الانغلاق والانفتاح، وقد يكون ذلك الفضاء موحداً أو فضاء لتصارع الذات وتطاحنهما. وإذا كانت الشقة، في المدينة، مركزاً فضائياً، فإن الحد الذي يفصل بين المنزل واللامنزل هو السلام والأفصاح والممرات والشوارع التي تعبر

عن طبقة المهمشين والضائعين والمدمنين على الخمر. وهذا ما يسميه ميخائيل باختين بفضاء العتبة²⁹. وإذا كان الفضاء الداخلي يتسم بالوجود والألفة والحميمية، فإن الفضاء الخارجي يتميز بالعدم والخوف والعدوانية والوحشية... ويتضح، مما سبق ذكره، بأن هناك فضاءات حدودية، وفضاءات داخلية، وفضاءات خارجية. وبالتالي، فالحد هو رمز للازدواجية اللغوية، والازدواجية الثقافية، والازدواجية السلوكية والقيمية...

الخاتمة:

وخلاصة القول، لقد عرفت الدراسات الثقافية ثلاث مراحل في تطورها المعرفي: مرحلة الدراسات الفلسفية والأنثروبولوجية، ومرحلة الدراسات اللسانية، ومرحلة الدراسات السيميوطيقية.

هذا، وتعد مدرسة تارتو - موسكو مهدا لسيميوطيقا الثقافة أو الثقافات، إذ قاربت الأنظمة والظواهر الثقافية المادية والمعنوية في إطار تفكيك السيميوزيس، وتركيبه من جديد. ومن ثم، يعد يوري لوتمان من رواد السيميوطيقا الثقافية، وقد ركز على مجموعة من المفاهيم هي: سيمياء الكون، والمركز والهامش، والفضاء الثلاثي: الداخل والخارج والحدود، والفضاء الجغرافي في مقابل الفضاء الثقافي الكوني، وسيميوطيقا الثقافة، وسيمياء الترجمة، وسيمياء الحوار...

هذا، ويعتبر مشروعه (سيميوطيقا الثقافة) إطارا نظريا ومنهجيا متميزا، إذ يسعنا في تحليل الكثير من النصوص والخطابات والأنظمة الثقافية، مثل: دراسة الفضاء العام والخاص، ودراسة محكيات السفر والرحلة، وتحليل النصوص السردية التي تضم مجموعة من الفضاءات المتنوعة والمختلفة، ودراسة أدب الهجرة، ودراسة بنيات المدينة، واستجلاء الأبعاد الثقافية في النصوص الأدبية وغيرها، ورصد الحكبات السردية التي تتلون بالأبعاد الثقافية بصفة عامة، وتمتخ من مفاهيم سيمياء الكون بصفة خاصة.

الهوامش:

1 -François Rastier et Carine Duteil-Mougel :(Sémiotique des cultures), **Vocabulaire des études sémiotiques et sémiologiques**, sous la direction de Driss Ablali et de Dominique Ducard, P.U.F, Paris, Besançon 2009, p : 89.

2 -François Rastier et Carine Duteil-Mougel :(Sémiotique des cultures), p : 90.

3 -Youri Lotman : **La Sémiosphère**, Presses universitaires de Limoges, 1999.

4- Youri Lotman : **L'Explosion de la culture**, Presses universitaires de Limoges, 2004

5 -Youri Lotman : **La structure du texte artistique**, traduit du russe par Anne Fournier, Bernard Kreise, Eve Malleret et Joëlle Young sous la direction d'Henri Meschonnic. Préface d'Henri Meschonnic. Gallimard, Paris, France, 1975.

6- يوري لوتمان : **سيمياء الكون**، ترجمة الدكتور عبد المجيد النوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 2014م.

7- يوري لوتمان : **سيمياء الكون**، ص:17.

8- يوري لوتمان : نفسه، ص:18.

9- يوري لوتمان : نفسه، ص:19.

10- يوري لوتمان : نفسه، ص:23.

11- يوري لوتمان : نفسه، ص:39.

12- يوري لوتمان : نفسه، ص:80-81. يلاحظ أن ترجمة الدكتور عبد المجيد النوسي لكتاب لوتمان ركيكة جدا، على الرغم من مجهوده المشكور عليه، وكنت أتدخل، في كثير من الأحيان، لتعديل بعض صيغ الترجمة التي أثبتتها في مقالي هذا. لذا، أنصح القراء بقراءة النص في لغته الأصلية. وينطبق هذا الحكم على ترجمات الدكتور سعيد بנקراد، سيما كتابه (سيميوطيقا الأهواء)؛ والسبب في ذلك هو اعتمادهما على الترجمة الحرفية، واستهلال الجملة بالاسم بدل الفعل.

13- يوري لوتمان : نفسه، ص:81.

14- يوري لوتمان : نفسه، ص:132.

15- يوري لوتمان : نفسه، ص:133.

16- يوري لوتمان : نفسه، ص:134.

17- سورة النساء، القرآن الكريم، الآية 100.

18- يوري لوتمان : نفسه، ص:135.

19- يوري لوتمان : نفسه، ص:183.

20- يوري لوتمان : نفسه، ص:194.

- 21- ميخائيل باختين: شعرية دويستفسكي، ترجمة: د. جميل نصيف التكريتي، دار تويقال للنشر،
الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.
- 22- يوري لوتمان: نفسه، ص: 25.
- 23- يوري لوتمان: نفسه، ص: 64.
- 24- يوري لوتمان: نفسه، ص: 26.
- 25 -Isabelle Wenger : **(Les notions de "sémiosphère" et de "frontière" selon
Youri Lotman)**, Séminaire: *L'histoire du signe dans la culture russe*
22.04.2013.
- 26 - LOTMAN, Youri: (l'espace sémiotique. La notion de frontière). La
sémiosphère. PULIM, Limoges, 1999, p. 9-.41
- 27- يوري لوتمان: نفسه، ص: 36.
- 28 - يوري لوتمان: نفسه، ص: 49.
- 29- ميخائيل باختين: شعرية دويستفسكي، ترجمة: د. جميل نصيف التكريتي، دار تويقال للنشر،
الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة 1986م.